ذكر جان جاك روسو

(١) جمال الطبيعة

كل من اسعدهُ الحظ والقت بهِ الاسفار على ضفاف بحيرة ليمان وقف وقفة المتأمل الحائر بين جمال تلك الآية الطبيعية التي منحتها السماء الوان الزبرجد والزمرد والفيروز وصفاء البلور وعذوبة الكوثر وهياج البحر وبين الجبال الشامخة المحيطة بشواطئها كأنها حراس ذات درجات ومناصب شتى زعيمها ورئيسها الجبل الابيض المعتمّ بالجليد طول العام ويتلوهُ جبل ساليف الضخم مدرعاً بصخورهِ التي لا ترام ومسلحاً باشجار السرو العالية. ويتلوهُ جبال وهضاب شتى كلها منزرعة حتى يخيل للناظر الى الوان نباتها انها ثوب فاخر مزركش

(٢) مدينة جنيف

يقف الانسان مبهوتاً مبهوراً حيال صنع الطبيعة التي كأنها لدى الفراغ من وضع كتاب الارض ارادت ان تجعل لهُ فاتحة جميلة فنقشت تلك البقعة وصيرتها فاتحتهُ. وحيال همة الانسان الشماء التي اضافت الى حسن الخلق الفطري حسن الاختراع البشري ولشد ما تكون دهشة السائح المتأمل لو إن سعد طالعهِ هداهُ الى مدينة يهتز القلم لدى تدوين اسمها العطر المحبب هي مدينة « جنيف » التي اطلق عليها العرب اسم «جنبرة». ان مجرد مشاهدة موقع ذلك البلد العزيز في خريطة الجغرافيا او مطالعة اسمهِ عرضاً في صحف الاخبار او سماعهُ على شفاه محدث يجعل القلب الرقيق يخفق كانهُ اسم حبيب غائب وينبهُ النفس من خمودها كانهُ لمحة من لمحات الوحي الالهي. ذلك كلهُ لان « جنيف عالم في ذاتهِ وتاريخها يشبه تاريخ دولة كبرى بحوادثهِ ووقائعهِ وفظائعهِ وحلالهِ ولان تلك الجمهورية الصغيرة تمثل منذ خمسين عاماً دوراً دولياً مهماً وكل سبيل من سبلها يحفظ اسم كبير من اكابر العالم الذين التجأوا اليها وعاشوا بين جوانحها امثال باكونين وكارل ماركس وهرتز وماتزيني وكورو بوتكين وبيرون وروشفور ومحمد عبده وغيرهم من اساطين العلم والفلسفة والسياسة

دع عنك ما ذكرت من المناقب فقد فاقت « جنيف » المدن ببحيرتها وجامعتها ومتاحفها وبساتينها بل ان اسماء طرقها تلذ للسامع. اذكر بولفاردي فيلسوف

وشارع الجبل الابيض وشيمان دولا روزري . وهذا الاخير جدير بشيراز وطن السعدي شاعر الفرس صاحب حديقة الورد . معظم السائحين يعرفون بستان مونريبو وبستان اريانا وبستان الامواه النابعة Eaux Vives ولكن قليلاً منهم يعرف ساحة بلانبليه لانها في طرف المدينة من جهة نهر الآرف تلك الساحة التي طالما اخترقناها في ذهابنا وجيئتنا الى دار الكتب وحي الطلاب المزدان باڤينو دي ماي وشارع برجالون وشارع شيوخ الجرنادييه وبولڤار كارل ڤوحت

(٣) المعيشة في ربوعها

لقد قضينا في تلك الاحياء وتلك الرحاب ليالي سعيدة احييناها بالدرس والمحادثة وعشنا في احشاء « جنيف » كما يعيش الجنين في بطن امهِ عيشة الزهد والتعفف واكتفينا بموائد الحكمة وما اكثر صنوف طعامها وتغذينا بلبان الخبرة والاعتبار ورضنا النفس على العزلة حتى اصبح انسنا في الوحدة . وكنا قبل ذلك نعاشر طبقات الامم المختلفة التي ترد فناء الجامعة فرأينا الياباني والروسي والبولوني والاغريقي والتتري والاناضولي والمكسيكي وقد ترك كل مجتمع من مجتمعاتهم اثراً ثابتاً في النفس فلا غرابة اذا عددنا « جنيف » امًّا روحانية مرحنا فيها تارة في كنف السعادة وطوراً في ظلال الشقاء

(٤) تمثال جليل

ولقد وقفنا مراراً وقفة المعتبر المتطلع تحت تمثال رفيع اقيم في وسط جزيرة حسناء تظللهُ الاشجار وتدرأ عنهُ مضطرب الرياح وتحت اقدامهِ امواج البحيرة تلطم الصخور لطماً لطيفاً كانها توقع انغاماً شجية تصعد ممتزجة بتغريد البلابل الى آذان صاحب التمثال الجالس على كرسي من البرنز على وجههِ بسمة ازدراء تخالطها الغبطة وفي يدهِ قلم وهو يهم بالتدوين في دفتر على ركبتهِ وتحت اقدامه كتب مبعثرة وقراطيس منثورة فاذا دنا الناظر من قاعدة التمثال رأى اسماً تخرُّ لذكره شوامخ العقل البشري ساجدة فيلفظهُ بصوت خافت ثم يرد بصرهُ الى الوجه المقسم الوسيم الذي لم تشجهُ لحية ولا شارب : هذا « جان جاك روسو » ابن مدينة جنيف حبيبها وخادمها وطريدها

(٥) عيد روسو

قبل الحرب بعام واحد كانت عواصم اوربا قاعدة قاعدة وبلادها هائجة مائجة

وقراها في هرج ومرج للاحتفال بمرور مائتي عام على ميلاد جان جاك روسو بجنيف . وكانت المطابع اذ ذاك مشغولة بنشر مؤلفاتهِ من جديد وباصدار الكتب الحديثة في تاريخ حياتهِ ومذاهبهِ كما ان المجلات العلمية والصحف اليومية خصتهُ بمعظم صحائفها وقد بلغ الهياج اشدهُ في باريس لان الحكومة هي التي شاءت تمجيدهُ بنصب قبر جديد على عظامهِ الراقدة في مدفن العظماء (پانتيون) واقامت لهُ احتفالا فخماً في فناء السوربون القيت فيهِ خطاب التمجيد والاجلال وكان من خطباء ذلك اليوم المشهود جان ريشپان واميل بوفييه وموريس باريس عضو الاكاذيمية الفرنسوية وعضو مجلس النواب

(٦) اعداؤه

وسيرى القارىء ان هذا الاخير كان يناقض ذاتهُ . يقول عن روسو قولاً طيباً ثم يقيم نفسهُ نصيراً لاعدائهِ زاعماً انهُ يريد انقاذ الوطن من تهمة الانتساب الى هذا الفيلسوف، وقد فشل في سعيهِ ونفذت الحكومة الفرنسوية والامة الفرنسوية رغبتهما . وقام يصرخ متمسكاً باعطاف هذا الرجعي شيخ مشهور بشدة الذكاء وسعة الاطلاع وحدة اللسان قال عنهُ خصومهُ انهُ خزينة لقولوص الكلم وقد غير مبادئهُ مراراً . بدأ حياتهُ استاذاً للآداب في كلية جرنوبل حر الفكر جمهوريًّا صادقاً واشتهر ببحث جليل جداً في نقد مؤلفات رينان . وختمها بما يزعم انهُ تقليل من مجد السالفين فيلقي عن كل عظيم محاضرات غايتها زعزعة ثقة الجمهور في ذاك العظيم وهذا الشيخ هو جول لمتر . سمعتهُ في ليون يمزق نياط حنجرتهِ في انتهاك حرمة روسو ويقابل من الجمهور بالصفير وتبعت اخبارهُ بمونبلييه فعلمت انهُ ارتد بعد الحدة خائباً

(٧) قدر روسو وفولتير

فلما شهدت هذا المعمعان تجدد في قلبي حب جان جاك وكنت من قبل قرأت اعترافهُ المبكي وطالما مزجت دموعي بدموعهِ على صحف الكتاب وصحّت نيتي اذ ذاك على ان اعرجهُ الى الشرق بعد درس كتبهِ وتمحيص مذاهبهِ لانني رجعت الى ذاكرتي فلم اجد انني طالعت عنهُ الا صفحاً معدودة في بعض المجلات والصحف ولم يتصدَّ احد الى فحص ترجمتهِ وتآليفهِ ويحق لنا ان ندهش من تخلي الكتاب قاطبة عن جان جاك على ما لهُ من القدر في بلاد الغرب فضلا عن كونهِ من اكبر

مكوني العالم الاوربي الجديد ونصيبهُ في العلم والفلسفة والادب والسياسة لا يضارعهُ الاَّ نصيب فولتير وانهُ بلا ريب تفوَّق على شيخ فيرنيه بحرية افكارهِ وسلامة قلبهِ واعراضهِ عن الدنيا وتعلقهِ باهداب الفضيلة والصدق . ومهما يكن قدر نصيب كل منهما في تكوين الفكر الاوربي الحديث فان معاصريهما نسبوا اليهما كل ما حدث من الانقلاب ونظم بعضهم اغنية صغيرة يتهكم بها على من تصدى لاتهامهما وترجمتها

لقد سقطت على الارض فاللوم على فولتير وانني في الغدير فاللوم على روسو

وهذه الاغنية على تفاهتها تدل على روح العصر الذي ترنم بها

على ان وراء هذه الاغنية المضحكة ما يبكي فان الذي انشدها وجمع بين هذين الرجلين العظيمين في مأزق واحد وجعلهما مسؤولين عن كل ما يحدث لم يكن يعلم ان حقد فولتير واثرتهُ وكبرياءهُ وتعاظمهُ سيجعلان منهُ لجان جاك الوديع المتواضع الفقير بحالهِ الغني بنفسهِ عدوًّا لدوداً لا يؤمن جانبه ولا تخمد نار حرده . بل ان فولتير بقي يضاغن روسو ويناوئهُ ويحقرهُ ويغري بهِ العامة الى ان مات فوجد عليهِ روسو وتمنى لنفسهِ الموت ! !

نقول انهُ ادهشنا تهاون الشرق بامر روسو مع مالهُ من الاهمية في الغرب ولم تكن شهرتهُ مقصورة على فرنسا وسويسرا وهما وطنهُ ومجال ابحاثهِ بل سارت تلك الشهرة مسير الشمس من اقصى اوربا الى اقصاها حتى انهُ ذهب المثل في بلاد نورويج اذا رأت امرأة صاحبة من صواحبها مغتمة ان تقول لها ماذا يدعو الى حزنك لعلك سمعت قدحاً في روسو . وسيظهر في سياق المقال ما ينسب اليهِ من الآثار الخالدة في حياة الامم المعاصرة معززاً بالبراهين وساذكر قبل ذلك بعض الكتب التي كتبت عنهُ وعن مؤلفاتهِ ومذاهبهِ مرتبة حسب تاريخ صدورها من سنة ١٧٨٨ الى ١٩٠٧

(٨) مؤلفات عنه

مدام دي ستايل	رسائل في خلق روسو ومؤلفاتهِ
موسيه باتي	ترجمة روسو ومؤلفاتهُ
برناردان سان بير	مقالة على جان جاك روسو
مورلي	جان جاك روسو

سان مارك دي جيراردان حياة روسو ومؤلفاته
لامارتين جان جاك روسو
سانت بيف مقالاته الانتقادية
اميل فاجيه مقارنة بين سياسة مونتسيكو وفولتير وروسو
حيول بحث في جان جاك روسو
دينوارستير فولتير وروسو
برتراند المتن الاصلي للعقد الاجتماعي
بودوان حياة ومؤلفات جان جاك روسو
ريتر جان جاك روسو
ماكدونالد درس على روسو
روسو واصول الكوز موبولوتيزم
ادوار رود — روسو

يرى من هذا البيان ان فريقاً من اعاظم الكتاب في كل الامم تفرغوا لدراسة حياة هذا العبقري وفحص مؤلفاتهِ ووقفوا جزءاً من اعمارهم على ذلك البحث المفيد الطلي . وقد سلك كل منهم سبيلاً في الدرس والنقد ومعظمهم تتبع حياة روسو في تأليفهِ فلاذ بكتاب الاعتراف وخصّ كل فترة من الزمن بما وضعهُ فيها الفيلسوف من الكتب والمبادىء وكأنهم يقلدون بعضهم بعضاً وقد يكون اوفى هذه الكتب ما وضعهُ اثنان من الانجليز لا نبخسهما حقهما الاول مورلي والثاني ماكدونالد . اما مورلي فكان صحفيًّا ومدير جريدة البال مال غازيت قبل التربع في دست وزارة الهند والصعود الى مجلس اللوردات وكان صديقاً حميماً لغلادستون ومنعكفاً على الدرس الفلسفي وذلك منذ ثلاثين عاماً تقريباً فوضع كتابهُ عن روسو واتبعهُ بكتاب عن ڤولتير ثم وضع كتاباً عن غلادستون وهو استاذ لا يجاريهِ الاَّ القليلون من مواطنيهِ في فن تحرير تراجم العظماء ويحق ان يكون رئيساً لديوان وفيات الاعيان وقد اتبع طريقة علمية في بحثهِ عن مروسو وتوسع في التفسير ورد الفروع الى اصولها ثم يتلوهُ ماكدونالد وكتابهُ افضل من كتاب مورلي ويرجع فضله الى ما استفادهُ من المؤلفات التي صدرت لعهدنا هذا

ستأتي البقية محمد لطفي جمعه